الفصل الثالث

الاضطراب الفكري

"تجنبا لكل المخاطر، يبني الإنسان المعاصر بيته في مناطق مغناطيسية ملائمة ويحرص على توجيه سريره بحيث يتصدى للموجات السالبة" وتحسباً لكل الصدف، يستشير الفلكيين والعرافين إذا كان رئيس دولة. وإذا كان رجل علم يقبل في قرطبة على تأمل قوانين الفيزياء الخارقة: يؤمن بالأجسام اللطيفة كما يؤمن بارتحالها. وإذا كان حارس مرمى، يتخلص من قلقه بإشارة من صليب في لحظة ضربة جزاء. وعندما يكون مراهقاً يهتم بالتناسخ، ويقبل بجد على طرد أو ترويض الأرواح وغيرها من الشياطين. وعندما يصل مرحلة النضج، ينشئ الملل باسم صبياني، من ذاكرة تتتان".

Etienne Barillier

Contre le Nouvel Obscurantisme

oberkandl.com

ينم الغلو اللفظي عن صعوبة تحديد العدو. فصراع عصرنا عائد إلى خلخلة كل التصنيفات: فلقد تغيرت قواعد اللعبة بالرغم منا، لم نكد نحصل على وقت كاف لمعرفة التصنيفات السابقة التي أصبحت لاغية.

كيف نوفق بين فهم الحاضر مع مراعاة تعقيده، في وقت غدا من الملح أن نفهم العالم وليس أن نغيره على عكس مقولة ماركس؟

إن الغموض يعني الأقوياء بقدر ما يعني المواطن العادي: كلهم ضائعون في الظلمات نفسها، شأنهم شأن البنت الصغرى آليس والملكة الحمراء يركضون حتى يبقوا فقط في مواقعهم لا يمسك بهم المنظر.

فالرأسمالية ماكينة شديدة التعقيد والحركية إلى حد كونها تضلل المفتونين بها أنفسهم، ذلك أنها هي وحدها حسب إقرار ماركس القوة الثورية الحقيقية: لا حاجة لها إلى تغيير المجتمع أو الحياة، فهي تقوم بتلك المهمة بصفة خارقة.

"إن البورجوازية لا يمكن أن تقوم دون تثوير دائم لوسائل الإنتاج (....) فكل العلاقات الاجتماعية التقليدية الجامدة، بما يتبعها من مشاعر وأفكار عتيقة وهشة تتلاشى، وكل العلاقات التي تعوضها تشيخ. حتى قبل أن تنموا عظامها" (الميثاق الشيوعي).

بل يمكن البرهنة على أن الرأسمال هو وحده "المضاد للرأسمالية"، لأنه يعمل على قلب ظروفها السابقة عن طريق

ما دعاه جوزيف شامبتر بـ"الإعصار الدائم للتدمير الخلاق"، أي بروز قيم جديدة بتقويض القيم القائمة.

ماتريكس والشيطان الماكر:

أما قد انقلبت كل النماذج، وأصبحت الرأسمالية تتمتع بمسافة تقدم جديدة على خصومها، و على أنصارها أيضاً، فإن الرغبة غدت جامحة في إما إقامة نصب رائع لها أو تحميلها كل مصائب اللحظة الراهنة.

فتذكر بصفتها كياناً بعيد النظر، بإمكانه التحسب لكل الاحتمالات، وتفادي كل الهجومات، يدعي لها مكر الشيطان وقدرته المطلقة: تتسمى بكل اسم، عنفها في كل مكان، المتواطئون معها كثر، تتصرف عن طريق الانتساب الصامت والإلماح الغادر.

إنها الإرهاق الذي يضنينا، والغرامات التي تذوينا، وهي الأمراض التي تنتشر والأوبئة التي تمزقنا، تتمتع بموهبة شريرة لإفساد كل ما هو موجود، من أكثر الأشياء حميمية إلى أكثرها بداهة، لأنها تتحكم في مصيرنا بطريقة لا انفكاك منها.

فكيف إذاً الاستغراب من الرواج السريع لنظرية المؤامرة في مثل هذه الظروف المعتمة: سواء تعلق الأمر بموت الليدي ديانا، أو بجنون البقر، أو بالكوارث الطبيعية، أو أيضاً انتشار السيدا الذي يقدمه بعضهم بصفته نزوعاً مقصوداً لإبادة الأفارقة والمثليين ومستهلكي المخدرات.

ففي كوالالمبور فسر رئيس الحكومة انهيار العملة الماليزية الريغينت بمؤامرة يهودية. لنتذكر أيضاً فيضانات فتحة السوم بفرنسا في خريف 2001 التي أرجعها الكثيرون إلى سوء نية باريسية: بحيث يكون قد تم "تفريغ" مياه السين للإساءة إلى سكان بيكارديا، مثلما يتم تفريغ حوض حمام.

بيد أن هاجس المكائد يتركز في قلب بابل الرأسمالية حيث تزدهر وسائل الإعلام والأدب والسينما، وكأن أمريكا مهووسة بانمحائها الذاتي: سعار التحطيم في مسلسلات B الهوليوودية، شهوة تدمير كل أصنام الأمة العظمى، وسحق السيارات والبيوت والممتلكات، ضمن جلجلة عارمة يترجمها هوس التدمير الذاتي المذهل الذي حققه بالفعل والتمام حادث 11 سبتمبر. وعندما تعرضت نيويورك للاعتداء، الذي هو ثمرة مؤامرة حقيقية، بدا في النهاية شبيهاً بأنماط الهذيان الذي تقدمه منذ سنوات أفلام الكارثة التي تستهلكها الإمبراطورية باستمتاع لتخوف نفسها وتقنعها بأنها لا تقهر.

ومن هنا هذا الشعور المفزع بأن الأمر ليس بالجديد بالنسبة للذين يتلذذون بمثل هذه التسلية.

ومن جهة أخرى، إذا صدقنا بعض وسائل الإعلام العربية، فإن تدمير أبراج نيويورك من صنع الموساد، التي كتبت شخصياً لأربعة آلاف موظف يهودي يعملون بها طالبة منهم عدم المجيء للمكتب يوم 11 سبتمبر.

وبقدر ما تكون علاقات النتيجة غامضة، تنساب البارانويا بسهولة، سامحة لكل أصناف الهذيان باتخاذ سمة الحكمة وحدة البصيرة.

تلك آلية لا تقهر خصوصاً لأنها لا تدحض بأسلحة العقل.

تسير الأمور وكأن نهاية أشكال الاضطهاد الملموسة في الغرب جعلت الحرية التي أذهلتها عزلتها تستشعر ضرورة إبداع أصناف لا مادية من الاضطهاد لكي تحس بالوجود.

لاحظوا على مستوى الثقافة الشعبية نجاح فيلم مثل ماتريكس للأخوة واشوسكي (1999) الذي يرد من خلال محن بعض الأشخاص كيف أن وجودنا هو نتاج محض لماكينة عليا، "قالب" يوجهنا، يكرهنا، يوفر لنا أحياناً بعض الملذات.

يمكن أن نصنع بالماتريكس كل الاستعارات الممكنة: استعارة الرأسمال والدين والطوائف والسلطة التقنية، ولكنها في كل الأحوال تتحدث إلينا كما يؤكد نجاح الفيلم. فمع الماتريكس كل أشكال الضلال مشروعة.

فمن يمكنه الكشف عن مخطط سري تدبره حفنة من الأقوياء يبرهن على أنه ينتمي إلى دائرتهم؛ لأنه أزاح اللثام عن أسرارهم:

فثمة نشوة يسارية بصفة خاصة تتمثل في تفكيك دواليب السلطة بل والإيحاء لها ببعض الاستراتيجيات الاستباقية لكي يتم التأكد من إمكانية استبدال خليفة بخليفة آخر.

فأي شخص يدين "سادة العالم" يبرهن أساساً على أنه أصبح يطمح إلى أن يصبح منهم.

فهؤلاء السادة العظماء يدبرون في ما وراء واجهة أبراجهم الزجاجية العمياء مكائد واسعة، يقرون ما يتوجب علينا ارتداءه، وتنفسه وشربه، يتصرفون في دماغنا وأحاسيسنا، يلقحوننا بأمراض فظيعة يسعون من بعد لعلاجها، وأحلام مصفاة أو بكر يحاولون تحقيقها، وكل ذلك لإبقائنا في أيديهم وللاغتناء من آلامنا ومطامحنا.

وكما هو الشأن دوماً، فإن منطق المؤامرة يترجم شعوراً خفياً بالاستلاب، فعندما نصبح عاجزين عن التحكم في مصيرنا، نميل إلى التفكير في أن قوة خفية هي المسؤولة عن عجزنا، فضلاً عن كون التبادل الحر لم يعد موجوداً في أي مكان بالصورة الأصلية.

الخلاص عن طريق الرخاء:

ما هي النزعة الاستهلاكية؟ إنها يطوبيا لإلهاء الناس. فهي فكرة بارعة وبائسة في آن واحد، تتمثل في الاعتقاد أن البشر عندما يتبادلون أو يشترون، يتوقفون عن الاقتتال ويحولون غرائزهم العدوانية إلى مجال السوق أو المتجر الكبير.

فباعتبار أن هذا النشاط يناسب العربي والهندي والإفريقي وكذا الصيني، فإنهم لا يجدون وقتاً لاستفزاز بعضهم ما داموا مشغولين بالاكتساب أو البيع.

إنها حكمة دون غطاء سحري، لأنها ترى السلام على الأرض في تعميم نشاط هو في آن واحد آلي ومكرر، لا يتطلب أي سمو، ويختزل الحياة الإنسانية في محض أفعال الاستهلاك والتسوق.

فابتسامة الإعلان الترويجي هي ابتسامة إله وجد في نهاية المطاف الحل لنزاعات البشر، وهذا الحل هو هوس الشراء الجنوني بصفته رقياً ثقافياً.

وهكذا فمجتمعاتنا الغربية لا تشجع التملك، وإنما تجميع وتبديد البضائع وتجديدها كنمط وجود.

فإن نحن اكتفينا باقتناء سياراتنا وأثاثنا بهدوء، سدت المخازن وشل النظام.

بل يمكن القول إن النزعة الاستهلاكية تتمثل في التحريم الموجه لجميع الناس بعدم الامتلاك بصفة دائمة.

الإيحاء، الإبداع، المحاكاة: يجب على الدوام إثارة الشهوات، تحويل أهواء البعض إلى ضرورات للجميع.

فخطؤنا في هذا الباب ليس أننا نرغب كثيراً، بل أننا لا نرغب إلا قليلاً ومع ذلك فإن هذه اليطوبيا ليست صلبة: فيمكن للبشر أن يغاروا من ممتلكات الآخرين، ويمكن للحسد أن يتحول إلى عداء.

obeikandl.com

وإذا كانت الأشياء المقتناة تحدث أصنافاً سريعة من اللذة، فإن هذه اللذة قصيرة، لسبب بسيط هو أن استعمالها يستنفد بسرعة مضمونها.

فمن الخارق والمحبط أن يتلاءم التوق مع تحقيقه. فالشيء الذي يمتنع علينا هو وحده الذي يمكن أن يكون ذا قيمة: فإذا هز مشاعرنا عمل فني ما أو مشهد معين، فذلك لأننا لا نشبع منه أبداً.

فغنى مثل هذه الأمور يتضاعف عبر معرفتنا بها، فهي منفصلة عنا دوماً بمسافة تشكل عظمتها الحقيقية.

فالنزعة الاستهلاكية هي تحقيق للمساواة بالأسفل: ليست بالضارة إذا وازنتها أهواء أخرى"، بينما تغدو مؤذية إذا تحولت إلى نمط حياة وغدت تحدد سلوكنا وقيمتنا.

إنها إذ تستبدل الحضارات الكبرى بكونية فقيرة هي كونية ماكدونالد ودزناي وكوكاكولا وإم تي في، تجعل من البشر نوعاً لاهثاً ومضعفاً، متجانساً على كل المستويات.

فلا يمكن للطف المجمع التجاري أو المنتزه أن يخفف ارتياع الإنسان العدمي أو المتزمت.

فإن واقع عصرنا لا يزال وعلى الدوام أساسه الحواجز وحقوق الجمارك. فعادة ما يعزى للتكتلات الدولية انسجام وماكيافيلية ليس لها، فلئن كانت قوية في مجال معين، فإنها ليست كاملة القوة كما

تبرهن تراجعاتها، ويدل جنونها كلما واجهتها مجموعات الرأي العام وتمردت ضدها في سياتل ودافوس وبورتو اليغر، أو في إفريقيا (بخصوص حصول مرضى السيدا على الأدوية).

فمن الأمور المغرية المبالغة في تقدير سلطة الشركات المتعددة الجنسيات، لكي نقول لأنفسنا إننا نحارب خصماً يفوق البشر، ولكن عمالقة الصيدلة والكيمياء والتغذية والبترول يصبحون -يا للغرابة- حساسين وضعفاء عندما تواجههم معارضة صارمة تسد الطريق أمامهم.

اليد الخفية في كل مكان:

تزداد دهشتنا عندما نجد آلية التفكير نفسها لدى محللين وفلاسفة وعلماء اجتماع كنا نعتبرهم نابهين، فإذا هم يتوهمون حضور يد السوق الخفية في عودة الأصولية والطوائف والمافيات والجرائم[32].

فالسوق تعتبر مسؤولة لوحدها عن التطهير العرقي في يوغسلافيا السابقة، وعن الحرب الأهلية في الجزائر وعن مذابح ليبيريا والسيراليون[33]، وعن نزاع زائير، إنها تكبح أيضاً حق الشعوب في تقرير مصيرها، مثلما أعلن ناطق رسمي باسم الاستقلاليين في مؤتمر بباريتز في أكتوبر 2000.

فالرأسمال الضخم يغدو من جديد مثلما كان الأمر قبل خمسين أو ستين سنة الشر المطلق: فنتوهم تحقيق الإجماع على

خبث العدو خبثاً شاملاً، ولكنه إجماع مصطنع مرده بعض الكسل الفكري ورفض النظر إلى كل وضعية في تميزها. فما هو الأمر في هذه الحالة إذن؟

إنها العودة إلى الخطب العدائية للبورجوازية والمعارضة للربح، وكأن شيئاً لم يحدث في القرن العشرين، وكأننا بعد عشر سنوات من انهيار الاشتراكية الحقيقية غدونا نمتلك من جديد الحل الجذري للشقاء الرأسمالي ولبؤس الأجر العمالي. من جديد تزداد زمرة الذين ينتظرون انهيار السوق، كما يجب أن ننتبه في هذا السياق لظاهرة لم تدرس إلا قليلاً هي التعب الذي يمس الأفكار مثلما يمس الأشخاص: ففي الجاذبية التي توحي بها نظرية ما مفعول جدة لا ريب فيه: إنها تبهر في البداية، ثم تضجر من بعد وتولد التعطش لمذاهب جديدة.

فعلى مسرح المفاهيم الكبير، يزيح المتفرجون جانباً عجائز الممثلين، ويصفقون للفرق الطازجة قبل أن ينحوا هذه الفرق بدورها. فمعاداة الرأسمالية كانت أغنية مكررة قبل عشرين سنة، وها هي تستعيد في أيامنا -عن طريق الأحداث- بعض اللمعان الذي يجعلها مرغوبة من جديد. ولكن الفكرة القديمة عندما تعود تؤدي وظيفة أخرى، كما سنرى فيما بعد، لكي تقول شيئاً آخر، غير الذي كانت تعبر عنه في البداية من قبل.

فعالم الاجتماع بيار بورديو يثير الحيرة عندما يتحدث في مطالبته السليمة بحركة اجتماعية أوروبية جديدة عن "اليد الخفية

للأغنياء" ويؤكد أن بعض الآليات القانونية التي أعدت في الظلام " تهيئ مجيء نمط من الحكومة العالمية غير المرئية في مصلحة القوى الاقتصادية المهيمنة" أي أمريكا[34].

فإذا كانت هذه الحكومة العالمية حقاً غير مرئية فكيف تمكن بورديو من الكشف عنها؟

فما هي الأسلحة العقلية التي يتمتع بها وليست في متناولنا نحن قراؤوه المتواضعون؟

وبالطريقة نفسها، عندما يندد انجاسيو رامونيه[35] بما لوسائل الاتصال الجماهيرية الجديدة من تأثير مفرط، من سينما وإعلان وتلفزة، و يكشف تحت الصور والشعارات عن خفايا تلاعب هائل بالعقول، فإنه يطرح مشكلاً منهجياً: كيف أفلت هو نفسه من هذه القبضة، وبأي معجزة لم تؤثر فيه القصص البوليسية وأفلام الرعب وأفلام المغامرات الأمريكية بتأثيرها المشوه؟

كم هي جذابة تحليلاته "للمنومين المغناطيسيين الجدد" إذا أخذناها حالة حالة، لكنها تغدو مداراً للشك عندما يريد أن يستخرج منها. قيام إيديولوجيا معينة، هي كما هو معروف الإيديولوجيا اللبرالية الجديدة المهيمنة التي هي إيديولوجيا الغرب المنتصر والمغرور.

نصل هنا إلى حدود فلسفة شك تعلن خفاء الأشياء التي يعرفها الناس كلهم، بغية الظهور بمظهر العمق للكشف عنها.

فعندما تفرض هذه الفلسفة مسبقا ما ستكشفه من بعد، تتعامل مع الموضوعات الثقافية والاقتصادية كأحجار ترفع للعثور على سر دفين وضعته هي ذاتها فيها.

فمن شدة ما يتحرى هذا الفكر الاحتراز ينتهي من الانحراف إلى الوثوقية، فينسى شيئاً واحداً هو الحذر من حذره الذي لا يقل إضلالاً عن الاعتقاد.

فمن الخطأ عموما أن نؤمن بأن البشر مغفلين لا يفهمون الرسائل التي نوجهها لهم، خصوصا عندما تكون هذه الرسائل صريحة، لا يخفى شيء من نواياها.

وعلى العموم، إننا نعزو للإعلان قوة مطلقة ليست له. نسكت في البدء عن الحملات الكثيرة التي تفشل. ثم عندما يتعرض كل فرنسي في المعدل لسبعة آلاف مشكلة في اليوم، بما فيها ما يتلقاه في دورات المياه العمومية، وعندما تطوق وجودنا شبكات عديدة من أجل استغلالنا فإن هذه الشبكات يقضي بعضها على بعض، فيزداد صمودنا قوة. تتدعم مناعتنا جميعاً لأن الألعاب الإعلانية المتتالية التي تقصفنا منذ سن المهد كل منها أغبى من الأخرى. فما يهددنا عندئذ هو البلادة والبلاهة أكثر من التجييش العقدي.

ولهذا السبب كان الإعلان غير المنظم انتهاكاً غير مقبول للحياة الخاصة، خصوصاً عندما يتعرض للرضيع منذ ميلاده، متخذاً منه هدفاً مفضلاً.

ولقد تخيل كاتب الخيال العلمي الأمريكي فيليب دبك إعلانات ترويجية تنفذ داخل البيوت، فتنشد فيها خطبها، التي تتوجب محاربتها بحد السيف مثل الدودة الضارة.

ذلك أن تجارة الإعلان لا تبيع شيئا آخر سوى نفسها، تعيد إنتاج نفسها إلى اللانهاية: إنها تكتفي بإخراج وتبني العقليات السائدة، التي هي في الغرب مذهب الاستمتاع الفردي.

فليست لها إيديولوجيا، إنها لا تقول لنا إلا شيئاً واحداً عبر ألحانها وشعرها الرديء هو أنها تطمح إلى استمرارية وجودها، تتطلع إلى أن تصبح ثقافة ونمط حياة (مما لا يمنع بعض الإعلانات من أن تكون بارعة في الفكاهة والبلاغة، مما يؤهلها لمستوى العمل الفني).

أما في ما يخص الخطابات المجنحة الشهيرة التي يعتقد انجاسو رامونيه أنه أناط اللثام عنها في حلقات كوجاك وكولومبو[36] فلم تعد تستوقف أحداً من كثرة ما فككت، بحيث إن المعلنين أنفسهم يصنفونها بسخرية كنوع مستقل بذاته[37].

فلعله من الأصوب أن نقول إن خطاب السلطة لا يخفي عنا شيئا، وإن البورجوازية تقول دوما ما تفعل وتفعل ما تقول.

فالاستراتيجيات الكبرى التي يعتمدها الرأسمال منشورة علناً في الدوريات الاقتصادية وكتب علم الإدارة، ومن المثير للضحك أن نغطيها بقناع في حين أنها تعمينا ببداهتها ذاتها.

هذه هي إذاً "العولمة الليبرالية" بلغة الرصاص الجديدة، وهي مسؤولة عن كل شر في الأرض، مسؤولة حتى عن الإرهاب، الذي هو نتيجة لها، بحيث إننا عندما نحارب هذه العولمة، "نقدم عناصر إجابة" على فظائع الإرهاب[38] فالقوة الكبرى التي يتمتع بها "اللوبي الليبرالي المتطرف العالمي" (سرج لاتوش)، تلك "الآلية الهائلة التي لا وجه لها"[39] هي التي تفسر هبوط المدنية، وأزمة الحقل السياسي، والحروب، كما تفسر أيضاً أنماط الفرد الخصوصي الذي أنهكه شغله وأضنته أوراق الضرائب وأفقدته الألعاب التلفزية اتزانه.

ولكن عندما نفرط في الاستدلال، نضيع في التفصيل فيما يشبه قائمة بريفرت، وتصبح الرأسمالية مثل حجرة ماركس بروثيرز الشهيرة: فضاء دون قعر يمكن أن ندخل فيه كل شيء.

ذلك هو دور الرأسمالية: أن تكون التفسير المبسط الشامل، والمثير الكبير للقلاقل الذي يسمح بشرح كل شيء دون أن يوضح شيئاً.

فالكشف فيما وراء كل ضيق وكل نزاع واضطهاد عن يد الربح الخادعة وعن الأصابع المتشبعة لكبريات كواسر ويل ستريت أو كواسر سيتي، ينم عن نمط من التبسيط يزيد الغموض، من حيث يريد إنارتنا...

فمهما كان رأي المهووسين بالعداء للعولمة، لا بد من الإقرار أن

مـجـازر الـقـرن الـعـشـرين الـكـبـرى - الـبـوسنة وروانـدا والـجـزائـر والشـيـشـان وتيـمـور - ترتبط بأصناف التعصب العنصري والديني والتشبث يالهويات والإمبراطوريات أكثر مما هي متصلة بالمسائل المالية والاقتصادية.

فـلا قـضـايا الاسـتـنسـاخ أو تحسـين النسل أو جنون الـبـقـر أو التقنيات البيولوجية تفسر بالتعطش للمال وحده حتى ولو كان هذا التعطش يمكن أن يزيد كل شيء حدة بصفة معتبرة.

إن القضايا المذكورة تجسد نمطاً من التـأله البشري، وإرادة للتصرف في الكائن الحي، وتنم عن نزعة فردية دون أخلاق، وهي أمور تستدعي كذلك القلق.

ومن أخطاء الـفكر التقـدمي القـديمة الـبحث عن سـبب واحد لسوء الحال، والفصل بين صنفين متقابلين هما من جهة المهيمنين والمتواطئين معهم والمضطهدين والمدافعين عنهم من جهة أخرى، من أجل تجميع أشكال السخط تحت راية واحدة.

فـهـذا الـهـوس بالتـأليف الـشـمـولي يؤول إلى صـحـراء نظرية جرداء، فمن شدة حرصه على استكناه لب المسألة لا يجني سوى الريح.

فحبذا لو لم يكن موجوداً سوى قوى الرأسمال الضخم من جهة ووعي الشعوب من جهة أخرى[40] سيكون الأمر رائعاً أكثر من اللازم.

إننا ننسى أن الوحشية متنوعة، ويمكن أن تنبثق دون سبب سوى سبب القساوة البشرية، كما ننسى أن عذابات البشرية ليس لها أصل واحد.

وكما أنه لا يوجد مسؤول واحد عن الشقاء الإنساني، فليس هناك ضحية رمزية تجسد باقي الضحايا.

فعندما يكتب القائد ماركوس في رحلته عبر الكون: "إن ماركوس لوطي في سان فرانسيسكو، أسود في إفريقيا الجنوبية، من السكان الأصليين في سان كريستول، يهودي في ألمانيا، داعية سلام في البوسنة، من المابيش في منطقة لآندس"(1994)، فإنه عندئذ يقدم أطروحة غنية ولكنها غامضة بالقدر نفسه.

فليس كل من أراد أن يكون المسيح، أتيح له الأمر، وليست كل أشكال العبودية مختلطة في شكل واحد، حتى ولو كان هذا الشكل محجوباً تحت غطاء سميك.

لقد انتهى العهد الذي يمكن فيه للبرولتاري أن يحمل على ظهره بؤس العالم، ولم يعد يوجد كائن منقذ حقيقي يجسد بذاته الشقاء الكوني.

فالصراع ضد نمط معين من البنية الاقتصادية، "يجب أن لا يحث على إرجاع كل شيء إلى هذا النمط الوحيد. علينا أن نتعلم كيف نتخلص من لذات الفكر الثنائي الشديد الإغراء لكنه بدائي نوعاً ما من حيث عوامل الإيضاح.

فمن هو في نهاية المطاف الأكثر انجرافاً في تقديس السوق: هل هم المتحمسون له الذين يرون فيه أداة السعادة التي لا تخطئ، بل أداة الإرادة الإلهية[41] أم أولئك الذين يزدرونه ويشتمونه بصفته مصدر كل المصائب؟

الخير هنا والشر هناك: فهؤلاء وأولئك يظلون سجناء المصادرة نفسها التي ترى أن الاقتصاد هو المتحكم في كل شيء والمحدد لكل شيء، ولا خلاص خارجه!

الحنين للحرب الباردة:

كأننا أمام تقليد فكري كامل لم يستوعب بعد انهيار الشيوعية، ولا يزال غير قابل للتعزية في فقد خصم مثالي. فالمهم هو القدرة على البرهنة على أننا نعيش دوماً في مجتمع استبدادي، وأن "الأخ اكبر موجود فعلاً، يقرر ما يتعين علينا شربه وأكله والتفكير فيه، يجمع كل السلطات في يديه، سلطة الاتصال وسلطة إنتاج الثروات الثقافية، فيفرض علينا رؤيته للعالم".

لماذا مثل هذه البراهين؟

لأنها تطمئننا، وترضي فينا حاجة ملحة للوضوح: وهكذا أصبحنا نعرف من يؤدي دور الشيطان، أي دور اللعين المفضل.

أرجعوا لنا خصمنا!

فلطالما قسمنا العالم إلى قسمين: سادة ضد العبيد، والرقيق

ضد الموالي، البروليتاريون ضد البورجوازيون، الاشتراكية ضد الرأسمالية.

بيد أنه منذ أن انقضت قسمة التعارف بين الكليانية والديمقراطية، غدونا يتامى تناقض كان يؤدي خدمات كثيرة، فالقسمة الثنائية هي الدعامة لنمط التفكير الذي يترصده الشك.

والغريب هو أن نلمس مثل هذا الصنف من النزعة الآلية لدى كل الاتجاهات، فبالنسبة ليسار اليسار، أصبحت فرنسا "مقاطعة صغيرة في النظام الدولي الجديد" تصرعها يد السوق الخفية التي لا ترتدي قفازات للتجويع والسحق دون صوت"[43].

ذلك أننا جميعاً "خاضعون للرقابة"(انجاسو رامونيه)، ومستهدفون برقابة الصورة والتجسس الإلكتروني[44]. وتلك هي الفكرة التي سعى الفيلسوف جان بودريار لبثها عندما شرح لنا بعيد اعتداءات 11 سبتمبر أن القمع وصل عندنا حداً من الفظاعة بحيث "أن فكرة الحرية، تلك الفكرة الجديدة والراهنة، بدأت منذ الآن تنمحي من العادات ومن أنماط الوعي، وأن العولمة الليبرالية هي بصدد التحقق بطريقة معاكسة تماماً: طريقة عولمة بوليسية ورقابة شاملة ورعب أمني. ففك التنظيم انتهى إلى حد أقصى من أصناف الإكراه والتقييد يوازي ما هو قائم في مجتمع تحكمه الأصولية"[45].

فعصرنا يكون بهذا المعنى قد حقق اليطوبيا المخيفة الواردة في رواية "1984".

وثمة ليبراليون عديدون يوافقون على مثل هذا التشخيص، بالانطلاق من مقدمات مختلفة تماماً. فها هو الاقتصادي الفرنسي جاك غارلو (القريب من آلان مدلان) يكتب "إن المجتمع الفرنسي المحروم من دفاعاته المتنامية ضد فيروس الدولة هو الآن تحت قبضة شكل ناعم ولكن حقيقي من الكليانية"[46]. أضف إلى ذلك "أن فرنسا هي مع الصين البلد الشيوعي الكبير الوحيد اليوم"[47].

"لقد كان ماركس يقول بدكتاتورية البروليتاريا. فها نحن في إرهاب فكري حقيقي، نقابي وقانوني (...) يحرم على الشركات أن تقوم بعملها، وعلى أرباب العمل أن يسرحوا عمالهم، وعلى الشركاء المساهمين أن يحصلوا على مكاسبهم، وعلى صناديق التقاعد أن توجد، وعلى المتنافسين أن يتنافسوا (...). فمراسيم الاشتراكيين ستحول فرنسا إلى صحراء اقتصادية، إلى حقل للصراع داخل الشوارع والأحياء، وداخل العقليات. ففي أقل من خمس سنوات، سنصل إلى التدمير، وإلى الهباء الكامل"[48].

وها هو ليبيرالي جمهوري آخر هو آلان جيرار سلاما يرى في معالجة بارعة حول النظام الأخلاقي المعاصر أن رخص السير بالتنقيط وارتداء حزام السلامة في السيارة. وإجراءات حماية الأطفال من المناشب الكهربائية، هي نوع من سيطرة الدولة على المجتمع تقترب من نظام فيشي[49].

وها هو اقتصادي آخر، هو باسكال سالين يرادف دون تردد

في كتاب ساطع الحجة بين النازية والستالينية والديمقراطية الاشتراكية بصفتها أشكالاً ثلاثة من العبودية المقننة[50].

ويمكن أن نورد ما ينتهي من الأمثلة انسياقا مع هذه الفكرة المسلية القائلة بالصدام الجذري الفاصل بين الخير والشر انفصالاً بحد الساطور.

فدون هذا الإطار الثابت، نفقد ما للبساطة من امتياز أساسي، ونضيع في عالم مشتت لا وحدة فيه، عصي على أذهاننا.

ففي حين يختفي الشبح الفاشي أو السوفياتي، يجب بعثه دوماً يميناً ويساراً، ولا بد من شن حروب مقدسة جديدة، واستجلاب القشعريرة الكبرى لمواجهة الرعب الأسمى. وكل من يرفض هذا البرنامج النبيل يتهم بالتمالؤ مع الوحش.

وباختصار، لا يزال هتلر وستالين يتسكعان في شكل نسخهما المعاصرة، التي هي من الخداع بحيث تختفي وراء خطاب عسلي أساسه الرفق والعناية.

obeikandl.com